محمد صلحي

شجون تحكي لهرايفها

نصوص سردية

شجون تحكي طرائفها

شجون تحكي طرائفها
محمد صلحي

رقم الإيداع القانوني: 2010 MO1766
ردمك: 978-9954-515-18-1
الطبعة الأولى، 2010
التدقيق اللغوي : ذ صبيحة شبر
تصميم الغلاف: التنوخي للنشر
حقوق الطبع محفوظة

© التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع
المشرف العام: سلطانة نايت داود
16 زنقة هيلسنكي، الطابق الأول - المحيط – الرباط
الهاتف: 90 60 54 0667/ الفاكس: 32 46 20 0537
Email : attannoukhi@gmail.com
Site : www.attannoukhi.net

تم طبع هذا الكتاب بمطبعة
Rabat Net Maroc
شارع الحسن الثاني، حي المنار
لحساب التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

محمد صلحي

شجون تحكي طرائفها

مجموعة قصصية

على سبيل التقديم

عبدالجليل بن محمد الأزدي

طرفة الشجن في الحكاية الشعرية

"في الحلم كان البشر يرحلون ويرتحلون، وكان وطن الثقافة استثناء وحيدا، بإيقاع الغيرة يحتفل به ويستميث. وهاهي المشاهد تدخل طقوسا أخرى من فهم الحالة وتجاوزها، إنه بلور العتبات"

بختي بن عودة، رنين الحداثة

نقرأ في عتبة العنوان الرئيسي وعدا مفاده أن النصوص الآتية à venir هي حكاية طرائف، وأن هذه الطرائف هي طرائف شجون تحديدا. ولن نطرح هذا السؤال بصدد مصدوقية هذا الوعد أو عدم صدقيته طالما أن السؤال هذا ليس من مهام النقد والقراءة، والأحرى أن نطرح السؤال التالي: ما الذي يكمن خلف هذا العنوان اللغوي؟ وما علاقته بالعنوان الإضافي الذي يشكل ميثاق قراءة: نصوص سردية؟

من الموائم الإشارة بدءا إلى أن جملة: "شجون تحكي طرائفها" تنهض كعنوان مختلط يتمفصل فيه الذاتي subjectal والموضوعي objectal من جهة أن يحدد جنس النصوص كحكاية، ويعلن عن أن موضوع الحكاية: طرائف الشجون.

وينصرف الشَّجَنُ في كلام العرب للدلالة على معان أربعة، وهي: الهَمُّ والحزن وهوى النفس والنواح والتفجع والحاجة كيفما كان نوعها.

أما الطرفة فتعود إلى الجذر الثلاثي طَرَفَ. ويقول ابن منظور: "شيء طريف: طيب غريب يكون (...) وخير الكلام ما طَرُفت معانيه، وشرفت مبانيه وإلتذَّه آذان سامعيه. وأطرَف فلان إذا جاء بطرفة" ويضيف لسان العرب في مكان آخر أن الأزهري قال: "سمعت أعرابيا يقول لآخر قدم من سفر: هل وراءك طريفة خبر تُطْرِفُناه؟ يعني خبرا جديدا. ومُغَرَّبة خبر مثله. والطرفة كل شيء استحدَثْتَه فأعجبك وهو الطريف. وماكان طريفا، ولقد طرُف يطرُف". (1)

والطريف الجديدُ نقيضُ القديم التليد. والعرب تقول: مالَه طارف ولا تالِدُ ولا طريف ولا تليد.

ومصطلح الحكاية الذي اشتُقَّ منه الفعل المضارع: "تحكى" ، فنادرا ما ينتبه الناس للالتباس المكتَنِف له، إذ هو يقابل ويعادل المصطلح الفرنسي récit الذي وضع له الكثيرون مقابلات عربية من قبيل :المحكي والحكي والقص، متورطين بذلك في التباسات المصطلحين العربي (الحكاية) والفرنسي (récit). وفي أفق رفع بعض هذا اللبس، يوائم التمييز تحت مصطلح الحكاية بين المعاني الثلاثة التالية:(2)

أولا، المنطوق السردي، أي الخطاب الشفوي أو المكتوب الذي يقوم برواية حدث أو سلسلة من الأحداث.

ثانيا: سلسلة الأحداث، الحقيقية أو التخييلية، التي تشكل موضوع هذا الخطاب، ومختلف علاقاتها من تسلسل وتكرار وتعارض وغيرها.

ثالثا: فعل السرد الدال على أن شخصا ما يروي شيئا ما. وترتيبا على ذلك، وتلافيا لأي نمط من الخلط والاضطراب في اللغة، سندعو قصة المدلول أو المضمون السردي وهو هنا طرائف الشجن أو الشجون، وسنطلق إسم الحكاية على الدال أو المنطوق أو الخطاب أو

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج9، ص 214 و ص220

(2) جيرار جنيت، خطاب الحكاية – بحث في المنهج، تر. عبد الجليل بن محمد الأزدي ومحمد معتصم وعمر حلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1996 ،صص37- 44

النصوص السردية نفسها في تحققها العيني، وسنحتفظ باسم السرد للفعل السردي المنتج، أي مجموع الوضع الحقيقي أو التخييلي الذي يحدث فيه هذا الفعل.

وبرغم أن العنوان الإضافي: "نصوص سردية" يصرف معنى الحكاية الوارد في العنوان الرئيس نحو الدال أو المنطوق أو الخطاب، فلا مندوحة لكل

قراءة تصبو إلى الملاءمة من أن تأخذ في اعتبارها العلاقات بين هذه المستويات الثلاثة: القصة والخطاب والسرد. فما معنى أن نحكي طرائف الهم والحزن؟ وهل هذه الطرائف جديدة وغريبة حقا وصوابا، أم أنها أشياء استحدثها السارد، وصادفت هوى في نفسه وتوافقت مع حاجات لديه، فأعجبته ثم سماها حكاية طرائف الشجون؟ وإذا كانت جديدة، فما جديدها أو ما الجديد فيها؟ وإذا كان النواح والتفجع، بما هما من دلالات الشجن، لاشيء طريف فيهما ولا طرائف هما، فما معنى إسناد الطرفة للشجن والحزن؟ هل يدل هذا على نمط من التلذذ بالفجيعة يلزم تحليله باستدعاء السيد سيجموند فرويد؟ هذا غيض من فيض وسطر من قمطر الأمثلة التي يلوح بها العنوان في بنيته المختصرة والمقتضبة والتي تستجيب بكيفية أكثر من ملائمة لمقتضيات العنونة مما صار معروفا في علم قائم الذات: علم العناوينtitrologie

ومثلما يحمل العنوان الرئيس بعدا تناصيا، فكذلك أمر العنوان الإضافي، إذ يشي عبر مصطلح النصوص إلى الطبيعة الديمقراطية للكتابة التي تتشكل كفضاء مفتوح يسمح لجميع اللغات بأن تروج وتدور دون أن تهيمن أي منها أو تسيطر. الكتابة ديمقراطية ولا يمكن أن تنتعش إلا في فضاء ديمقراطي. الكتابة ديمقراطية وتسخر من جميع أشكال التوتاليتارية. والكتابة ديمقراطية برفضها هيمنة الصوت الواحد واللغة الواحدة والرأي الواحد. لذا فان الأنا الساردة المتكلمة في النصوص الآتية هي نفسها فسيفساء من النصوص، أو لنقل أن ذاكرة هذه الأنا معمورة بنصوص سابقة الوجود نتيجة القراءات المتعددة والمتنوعة للمؤلف.

وإذا كان البعد التناصي يسعلن بداية في العنوان الإضافي من خلال الإلحاح أو التشديد على أن ما سيأتي نصوص ونصوص سردية فحسب، فإنه يتبدى كذلك في المقتبسات epigraphes التي تستهل بها الإطلالة الأولى والثانية وجودهما، ويحدد قاموس المطرائق الأدبية لصاحبه فونتانييه، البلاغي الفرنسي- يحدد المقتبسة كالآتي: "شاهد يوضع في مستهل عمل أو فصل للإشارة إلى روح هذا العمل أو الفصل"، ويضيف إلى هذا التحديد ملاحظة تقول: "أن القصد العام للكاتب يكون موضحا بالمقتبسة". ومن رأي ميكائيل ريفاتير أن المقتبسة تقوم مؤولة. والمؤولة تشتغل نموذجا للاشتقاق الإبداعي. ويأخذ مفهوم المؤولة معناه انطلاقا من الصياغة التي أعطاه إياها شارل صندرس بيرس: "يحل دليل محل شيء آخر بالنظر إلى الفكرة التي ينتجها أو يعد لها (...) فما يَحُلُّ هو مَحَلَّه يسمى موضوعَه، وما ينقله يسمى معناه، والفكرة التي ينتجها مُؤوِّلته".

ويستخلص من ذلك أن المقتبسة شاهد مأخوذ من نص سابق الوجود ويوضع في بداية العمل أو فصل منه ليعلن مقاصده الشكلية أو الموضوعاتية. وضمن العمل الذي نقرأ هنا: شجون تحكي طرائفها، يتعرف القارئ على فصلين يمنحهما الكاتب اسم: الإطلالة، ولهذا الإسم علاقة بموضوعة أو ثيمة théme الزمن كما سنرى لاحقا. وفي مطلع الإطلالة الأولى الخاصة بالزمن المضاد، نقرأ مقتبستين تلحان على ثيمات الحياة وضياع الحياة والشوق والانتظار، وهي جميعا مسكونة بمكرورة motif الزمن المركزية في هذا العمل، أولاهما مأخوذة عن الرواية الرائعة لحميدة نعنع: الوطن في العينين (1979)، وثانيتهما، وقع استحضارها من رواية الغواتيمالي أستورياس (جائزة لينين – جائزة نوبل): البابا الأخضر، أما الإطلالة الثانية الموسومة: قصر بعمق أشجان الصَّبا، فتقتبس عن الشريف البدري العبارة الآتية: "الإنسان لا يولد ليحزن ويموت"

والواقع أن النصوص السردية الراهنة تتمفصل على إطلالتين:

أولاهما، تحمل عنوانا فرعيا داخليا: زمن مضاد، وتتضمن تسعة محكيات طويلة نسبيا، هي: إرهاصات زمن، تناغم، رقصة

الجسد، نهاية محتملة، نسف رجولة، امرأة النسق الثنائي، ثلاثة نوارس تمتشق نعيقها، حاء، مريمتو، وثانيتهما، موسومة هي الأخرى بعنوان فرعي داخلي: قصر بعمق أشجان الصبا، ومشمولاتها محكيات شذرية fragmentaires يمكن أن ندعوها الحكاية – البرقية، وهي أربعة عشر: رتابة، عطر، فوتوغرافيا، محاولة عيش (ويجب أن نتذكر هنا رواية المرحوم محمد زفزاف التي تحمل نفس العنوان)، جاذبية، متوالية، ورطة، جدل، قطران بلادي، أمل، خسوف، مونولوغ، تلاوين نهاية.

تتوفر هذه المحكيات على بنيات وأنظمة تمتلك سمات متميزة، تقتضي في المقام الأول الإقرار بزمنية خاصة بها، أي تقوم بتخصيصها كحكايات، إذ أن صياغة الحكاية كنص سردي تقوم على عرض معنى معين ضمن ممارسة حضورية تنهض أساسا على عمليتي حفظ الماضي (التذكر والاسترجاع) واستشراف المستقبل أو الإطلال عليه (الاستباق بلغة جيرارجنيت). وترتيبا على ذلك، يصير النص السردي وحدة زمنية حضورية تتألف من الحفظ rotention والإطلال protention، أي وحدة أو مقطوعة زمنية تعود إلى الماضي القريب وتمتد نحو المستقبل القريب كذلك لتشيد منهما انسياب الحاضر الحي مترقرقا في الوعي الخاص بالسارد، صنو المؤلف وضعفه، الذي يتلاعب بضمائر الشخص (أنا، أنت، هو) ويجعل ضميري الخطاب والغياب تنويعا على ضمير المتكلم بضربات مناجاة لافتة.

يختلي السارد بنفسه على عتبات قريحته متفكرا ومتمنيا وآملا ومتأملا، تجول كلماته وتجوس مهووسة باقتناص المعاني المنفلتة والمتمنعة. يشحذ "إلهامه"، فيصوغ حكاية – مرثية تأبينا لموت الإنسان وموت آماله وأمانيه إن في شوارع الرباط أم في العيون الجنوبية وإن في الجامعة أو فوق الرمال أو في مكتب منزوي داخل مقاطعة حضرية لتسجيل الوفيات المتوفاة أصلا، أي الكائنات التي كانت ميتة في الحياة قبل أن تصل إلى الموت البيولوجي النهائي.

ثكلت الحكاية – المرثية تفصيلا وليس جملة، إذ ارتقت في جملتها إلى مستوى القصيدة التي تشرف على موضوعات ومعاني ودلالات لها طلاوة الفجر: دفق الإحساس بوطأة العمر والرغبة في

الفناء خارج سلطان الزمن – اللغز الذي لا قدرة للعلم على تفكيكه، وتطمح الحكاية الشعرية أو المُشَعْرَنَة إلى استعادة زحفه على الكائنات والموجودات، الانتظار والترتب والتمني، الحياة والموت وما بينهما كبرزخ، المقاومة والخنوع، الوطن اليباب والأحلام المصادرة، الشعر والعلم، رهاب الخصاء، الآمال المعلقة على مشجب منحوت من الوهم، الشوق والتوق لحبيبة لم تأت ولن تأتي، الإيمان بالحياة لدرجة الوله...

تلكم بعض عناصر البنية الموضوعاتية المنكتبة في سطور هذه النصوص السردية التي تشكل موضوعة الزمن قيمتها المهيمنة la valeur dominante، إذن في ضوء هذه الموضوعة، تشتغل الحكايات المتناسلة وتولد معانيها ودلالاتها التي يشكل الفضاء الكنائي وإستراتيجية اللاتحديد خلفيتها المكانية والزمانية.

فهذه النصوص السردية تومئ إلى أمكنتها وأزمنتها ولا تحددها. ومن ثم، يسعفها اللاتحديد في إطلاق عنان وشرارات المخيلة التي تنفتح أمامها أمداء التخييل شاسعة ومترامية كأمداء البحر وكثبان الصحراء وبراري وادي أم الربيع. يتدفق السرد التخييلي وينساب رقراقا ومشعا تماما مثل شلالات أزوض، وفي رذاذ شلالات السرد يتعرف القارئ على عالم المعنى في هذه الشجون التي تحكي طرائفها بكيفية قريبة من النشيج الذي يصل إلى حدود الفجيعة.

ومثلما يغيب التحديد عن إحداثيتي المكان والزمان، يغيب التمييز كذلك عن إحدى المكونات الجوهرية في جميع النصوص السردية: أقصد الشخصية.

فعلاوة على ندرة الشخصيات في نصوص الشجون التي تحكي طرائفها، فإنها غير مميزة وغير واضحة الملامح، ما خلا الأم والأب والسارد صنو المؤلف وضعفه ومريمتو التي تعزل برموشها ورفات عينيها ضوء البدر فوق رمال الصحراء، بعد أن تطفح الأنوثة فوق جسدها الغض وتطرز أجواء شارع مكة في العيون الجنوبية بنظراتها الساحرة وبجسدها المتموج مع حركة الأعطاف الهادية للملاحف التي تفيض منها بلاغة الجسد التي تسمو فوق كل بلاغة ولو حَبَّرَتْها أنامل السيد الجليل والوقور عبدالقاهر الجرجاني.

لا يتعرف القارئ على الأم إلا وهي تنوح على غرفتها التي أغرقها السيل المنهمر من السماء، والذي لم يعصم إلا حصيرا بلاستيكيا وبعض الأواني من نفس الطينة، ليطوح بهذه السيدة وابنها في العراء فريسة الجوع والحيرة، ولا يتعرف القارئ كذلك على الأب إلا رجلا ملولا، يلوذ من الملل بسبحته وما يرتبط بها من حمدلة وحوقلة. "رجل كاسف البال، ناكد المزاج، يرثي أيامه التي تآكلتها سجون أيام المقاومة". رجل قاوم الكولون الفرنسي، فربح الملل والنكد والسأم، أما الوطن، فقد ترامى خارج عوالمه ليسقط بين أشداق أسياد هذا الزمان، أما السارد فهو سيد عالمه التخييلي، وهو المسؤول الأول فيه عما تهدر به الذاكرة وعن شتيت الأفكار الحبلى بالترقب والخواطر التي يزحف بها فوق البياض العذري للصفحة قلمه الأرعن والجسور على اختراق المتعارف عليه. إنه سارد – إله، كُلِّي الحضور وعليم يرفع السقوف ويخترق الجدران كي يرى ما بذات الصدور وربما ما تخفيه القبور، وشخصياته – مخلوقاته لا تظهر وتختفي إلا حسب مشيئته الباترة، ولا تعمل ولا تتكلم إلا بحساب، بل إنها لا تنطق إلا بما ينطق به السارد عنها وعبرها، وبالمناسبة، فالسارد هذا لا ينطق عن الهوى، ويقول ما يفعل، ويفعل ما يقول، بالرغم من أنه يعشق الشعر إلى حدود الوله ولدرجة الرغبة في أن تحمل شاهدة قبره شعرا دون المتعارف عليه والمعهود من بيانات شاهدات القبور.

ويشكل هذا الأمر موقعا مشتركا بين الشجون التي تحكي طرائفها ورواية الفلسطينية حميدو نعنع: الوطن في العينين (1979) التي قَدَّمت ضمن ما قدمته صورة عن المرأة المناضلة المشاركة في المقاومة الفلسطينية واللبنانية. وقد قامت الكاتبة بترحيل بطلتها نادية إلى فرنسا لتحتك بالآخر: فرانك، الذي جعلته ينطق بما ترغب أن تصف به الآخر (الغرب) كي تتمكن هي من الحديث عن أوروبا العجوز الشمطاء. والعلاقة بالغرب مطروحة كذلك في محكيات محمد صلحي، لكن ليس في ارتباط مع موضوعة الذكورة والأنوثة والأنا والآخر، بل في تفضيل جزئي يهم علاقة الأنا الشرقي والآخر الغربي بالزمن ضمن النص السردي الموسوم: إرهاصات زمن.

وعلاوة على هذا الموقع المشترك، تنهض بين النصين الكثير من الملاقي مربط الفرس فيها لغة الكتابة المجازية التي تتوكأ على التقطيع والتصوير الإستعاري والكنائي والترميز وتفجير اللغة والشاعرية والمفارقة علاوة على المزاوجة بين المحكي السردي والمحكي الشعري. وبهذا المعنى، تنهض اللغة في النصين معا على امتزاج وتناغم الغنائية والسردية الدرامية وكثافة الصور الشعرية والنثرية واستثمار باذخ للرموز والكلمات الموحية وتأنيث المعجم وتليينه وتلطيفه بلغة شعرية نابضة بإيقاع التذويت والتلوين البياني والبديعي واستعمال الكلمات متعددة الدلالات واستثمار البنية الأساسية والجوهرية للغة الشعرية الانزياحية الإيحائية، وأخيرا استثمار النصوص الشعرية، وضمنها الشعر الحساني القادم من تواشج الكلمة بالإيقاع، وبحركة الرمال وسفر النجوم، وبشتلات الآثال وحومان الطيور، وفيه يتوحد الطرب والموال والفخر والعشق والوله الأزرق الناغل في حمرة دم شرايين الحياة.

وعبر مجموع المواصفات السابقة، بما هي سمات تمييزية، تنخرط الشجون التي تحكي طرائفها في شكل من الواقعية السحرية، متقاطعة بذلك مع الكثير من النصوص السردية التي صاغتها أيادي المهرة الخاذقين من روائيي أمريكا اللاتينية، وبصفة خاصة الغواتيمالي أستورياس، وروايته البابا الأخضر بكيفية أخص، إذ في هذه التحفة الروائية، يتدفق السرد بين صلب النثر وتراتب القصيدة والأغنية، ويوضع المتن الحكائي على خلفية عالم استوائي يراوح بين الواقع والسحر، وينوس بين أسرار البحر المذهلة وعجائب الأرض الغريبة، ويروح ويغتدي بين قوة الواقع وشعرية الحلم، بين نثر الحياة اليومية للقرصان جوماكو تومبسون وشاعرية القلب لدى ما ياري الخلاسية التي أدبرت عن القرصان ورفضت الاقتران به، وآثرت أن تتزوج النهر ضمن طقوس سحرية يختلط فيها الواقعي بالخارق والعجيب والغريب، وتتيح للمؤلف أن يغزل لوحات حب جميل محكوم بالهزيمة أمام الواقع، لكي لا يتبقى له سوى التعلق بالممتنع والمتمنّع والمستحيل.

واعتبارا للأواصر الحميمية بين السحري والشعري، فإن العودة إلى المدخر منهما تشكل موقعا مشتركا بين البابا الأخضر ملك الموز وحكاية الشجون لطرائفها، ومثلما أن أستورياس يبدأ من اليومي النثري والمألوف المبتذل وينتهي إلى الكوني الشعري والعجيب الخارق، فكذلك صنيع محمد صلحي الذي ينطلق في محكياته من أحداث عادية أو تبدو عادية، ليصل إلى طرح مكرورات motif وموضوعات كونية: الزمن، الموت، رهاب الخصاء، الأمل...، ودون التغافل عن المسافة بين المحكي الروائي والمحكي الأقصوصي، يمكن القول أن الرحيل أو التنقل في المكان والزمان يشكل موضوعة مشتركة بين ما كتبه أستورياس وما صاغه محمد صلحي برموش العين وزهور الأمل، إذ في البابا الأخضر، يتنقل القرصان الأمريكي الأشقر في أمداء البحر الواسعة نخاسا وتاجر أسلحة، وحينما يقرر التخلي عن القرصنة كي يصبح تاجر موز ينشر الاخضرار أينما حل وارتحل، فإنه يزحف مثل اللوياثان الغاشم أو الهيدرا، ديدنه التدمير وتوزيع الرعب بالجملة والأقساط على السكان الأصليين الذين يقرض مزارعهم بالنار تحت ذريعة استئصال الأوبئة والجائحات. ينتصر على كل شيء ويربح كل شيء، لكنه ينهزم داخليا ويخسر نفسه لعجزه عن تملك الحب وامتلاك الخلاسية مايارى، ومن ثم، لا يتبقى أمامه سوى استئناف رحلة العمل في القرصنة، لا في البحر بل في البر، وبوازع تبشيري عنوانه تعميم الاخضرار أو الخضرة، ولذلك يستعير كذلك اسما تشتم منه رائحة الدين والتبشير: البابا الأخضر ملك الموز.

أما في محكيات محمد صلحي السردية، فتتعدد التنقلات وأشكال الرحيل بحثا عن الأمل المتمنع. وتماما مثل بحار مأخوذ بالمجهول، يغادر السارد أرخبيل قناعاته وأفكاره المبدئية، يرفع أشرعة الصبوات والكبوات ويرحل مبحرا في ظلمات اليأس داخل بحار لا شموس لها بحثا عن الحياة والأمل. وتنتهي الرحلة نهاية مؤسية، إذ يكتشف أن الآمال إهليلجية الشكل، وإن الحياة منقوعة في الحزن والشجن، وما يتبدى منها من بصيص يكون قاب قوسين أو أدنى من الحتف والموت، هذا برغم أن الإنسان لا يولد ليحزن ويشقى ويموت كما عبر الشريف البدري.

وإذا كانت تحفة حميدة نعنع: الوطن في العينين ورائعة أستورياس: البابا الأخضر جديرتين بالقراءة، فكذلك أمر هذه الشجون التي تحكي طرائفها، إذ تَسمح قراءتها بترشيد بلاغة واضحة الأطراف والطُرَفِ، أطراف الذات وطرف الوطن الذي لا معنى فيه للزمن الذي إن عثر على بصيص معنى حَضَّ من جديد على الإنصات إلى توتر السؤال: سؤال الزمن في المغرب الراهن.

إطلالة أولى

زمن مضاد

"ما أصعب أن تحيا شوقك انتظارا"
حميدة نعنع – الوطن في العينين

"تكفي مرة واحدة ليضيع المرء من دون أن يجد نفسه"
أستورياس – البابا الأخضر

1

نور الغرفة يكبح زحف جهمة الليل. يستوطن البرد مفاصلي. تهفو نفسي لاستجلاء التفاهة الكامنة وراء انزوائي. تلبد السنين متحشرجة بداخلي. يدب الطلق في زحمها.

الغرفة - الوحيدة - فضاء متكلس من البلادة والعقم. تشرئب قنينةُ خمر وسط كأسين وعلبة سجائر رخيصة. ترمح الفوضى في كل ما تطاله عيناي.. الكتب المرصوفة.. شرائط الكاسيط... الأغطية.. وجودي.. شراشف النافذة.. أطرافي المهملة في استرخاء بليد..

أحيانا يريحني انتشار هذا القبح.. قطة جرباء تحتك بساقي.. أطعنها بركلة في بطنها.. تموء متشنجة، وتسحب آلامها إلى ظلمة الشرفة.

يحضرني إصرار حبيبتي على احتفائها بسنواتي الإحدى والأربعين. تدفعني كي تشهد الزمن الخامل في خلاياي، وتتملى دبيبه الحلزوني. تغمرها لوعة ترقب السنين الزاحفة على محياي.

ترهق نفسها بإصرار الأنثى الحاذق. تترقب العد العكسي للأيام بفرح طفولي.

"ماذا يعني لكِ هذا الإصرار؟".

"أريدُ اقتناص لحظات إطلالك على سنة جديدة من حبنا".

"كفاك شاعرية تستعير بلاهة الزمن".

"ليس أشد بلاهة من تهربك..".

أزاحت نظارتي.غاصت بنظرتها الولهى في شرودي.

أعلنت حصارها. وتساءلت: "هل تخشى شيخوختك المبكرة؟".

"كل ما في الأمر عشقي أن أفنى في بوهيميتي منفلتا من سلطان الزمن".

"لكنك ستفعل هذا لأجلي".

"...".

اندحرت براهيني. أخرس نبضُ جسدها بلاغةَ لساني. وتلاشت حشرجة صوتي على ضفتي شفتيها.

2

تترى الأفكار في ذهني.. يستهويني بياض صفحة.. تداعب أناملي قلم حبر جاف.. أستأنس به.. أحس فكري يعانق البياض.. يتحول انبطاح الصفحة إلى مواجهة تغزوني... أجد لذة لخوض غمارها، ثم أقتحمها..

لم أقف يوما عند هرم عمري لاستنطاقه. أخشى انقصاف رقبتي تحت سيل تداعيات أزمنة حالكة، مقرفة. تخنقني محاصرة لحظة ولادتي وتعقبها في مسارب لا طائل منها. ما عساه يفجر إيقاد

الشموع، وبمَ سيوحي إطفاؤها؟ هل لعلم ما قدرة على تفكيك شفرة هذا الرمز- اللغز؟

ينسحب قلمي متخاذلا. فكرت بسخافة - دون أن أخط أفكاري- سأوقد إحدى وأربعين سنة وأجهز على الأربعين منها مخمدا تراقص ذؤاباتها. سأخرق المتعارف عليه. لم أجد معنى لتخليد سنوات مضت. لكن يمكنني الاحتفاظ بأمل مشتعل بينها. انخرط ذهني في اللعبة.

شرعتُ في تخمين لون الحلوى وحجمها.. لون الشموع ومقاساتها.. زخر رأسي بالسخافات وأطنب في تفاصيلها.

علقت في شراك هذا الجو الدبق. خلت نفسي أسكنُ الشمعات الضئيلة. تختزل ذؤاباتها سنين تجربتي. أكتوي بنارها البديعة. تهرق نسغ حياتي بلامبالاة، فينسكب في صمت قاهر، بلا شكل، مجردا من أي لون، مدفوعا بقوة قاهرة للأسفل، فينزوي كيفما اتفق.

3

ألوي رقبتي شمالا ويمينا، درءا لملل الانتظار. أتطلع لوصول حبيبة ناب عنها حديثها.

"ستضطر للتفكير في لحظة انقذافك في هذا العالم. ليس في مقدورك التسامي عليه".

"ياه.. أية حمولة ينطوي عليها هذا الحدث.. أحسه يعكس علاقة غريبة بالزمن".

"لكنه قد يشمل كل إنسان".

"عندنا! لا أظن. لم نعثر بعد على تفاصيل مسار عمرنا. لم نحدد بعد إنسانيتنا، أو لم نحققها، فبالأحرى السعي لتفكيكها والوقوف على لحظات وجود هذا العمر المشين.. لدينا تتداخل الطفولة بالرجولة.. وتنبعج المراهقة بالكهولة..".

"كفاك تعقيدا للأمور.. ستفرح بهذه السخافة وتنتشي بحضوري".

4

يجأر صوت الجارة المخمور غناءً. أستسيغ رخامته. ويؤنسني مخترقا برودة الجدران.

يحبل شتيت أفكاري بالترقب. أباغتُ القلم متلصصا على خواطري، فأبيح له نزوته، وأترك له زحفه الأرعن.

تفرز ذاكرتي قولة أحدهم: "شيئان يعطياننا فكرة عن الموت: الزمن السابق على ميلادنا ثم النوم". ربما هي اللحظة التي لا يتحقق فيها وعي الفرد لذاته ولوجوده.

تتلقف الصفحة كلماتي، تحتضنها، وتنفتح لرذاذ الأحرف.

تسوقني الفكرة للتأمل في الوجه الآخر لحياتنا: الموت.

أعشق يوما أنتهي، وأتوارى عن الوجود أن ينقش على شاهد قبري شعر، لا بيانات عني. من يدري قد نحيل الموت يوما حقيقة ليس أبشع من الحياة..

يحاصرني زحف كلماتي ملتهما بياض الصفحة، لأجدني محملا بلذة الاحتفال على طريقتي، بث هذه الكلمات بذرة إخصاب في بياض عذري. والأحرف تنساب، يخامرني شعور بأن الاحتفال أكذوبة كالعودة المرتقبة لحبيبة لم تظهر.

تنـــــاغـم

ينتعل لحظات مشواره. يعرِّج على مقهاه. يحتسي فنجان تفريغ توتره اليومي. حطت على شط شروده ذكريات. بعد هجر جاءت تغزل من مغيب الشمس حلمه المجهض. تنسج من تناسل سنين العقم أوجاعه. جالسته متسائلة:

– كم نبضا من حياتك اختزنت للوطن؟

تجْأر دواخله ببحة تملأها الحسرة:

– بل كم نبضا اختزنت لنفسي.

تستغرب ذكرياته:

– أواه.. هل توجت نفسك ندا للوطن!

يهم بالرد.. يرصد مسخا يتنطط خلف تساؤلات ذكرياته.. يلوذ هو باللامبالاة.. يقفز المسخ متماديا في التنكيل:

– أخمن أنهم صادروا أحلامك، ونحتوا إرادتك بندولا يحصي اللحظات الأخيرة لوطنك..

(يسود صمت لبرهة)

لم يعر المسخ أي اهتمام، وقفزت الذكرى تناوشه:

– منذ متى وحصار عشقك مرهون لأسياد هذا الزمان؟

في محاولة لصدها دلق جوابه مع آخر جرعة عشق.

نفث بقايا أشجان.

وشعر بالوطن يمتد خارج عوالمه.

لما ناحت والدتي على غرفتها التي أغرقتها الأمطار، لم أكن قاسيا حين ملتها على نحيبها. ليس لديها ما تبكيه سوى حصير، حالفنا الحظ أنهم اهتدوا إلى صناعتها البلاستيكية، وبعض الأواني الطافية فوق الماء العكر. استقبلنا العراء. إنتثرنا تحت خيام مخرمة، نخوض في الوحل بداخلها. تلزق الثياب بأجسادنا. تحترق بطوننا بالجوع. وتنطق الوجوه بالحيرة.

تساوت لدي الأمور وهمتُ على وجهي. غادرت آخر ملجأ احتميت به، غرفة والدتي. لا يهمني من حياتي شيء. داهمتني أفكار خرقاء.. لن يعادل ما تجيش به نفسي سوى نجاسة ما. عدلت من أفكاري. لم يعد يضيرني أي أمر. بدت إرادتي مشلولة، وأفكاري فقاعات عائمة لاتلبث أن تنفقئ.

كلما حاولت مناجاة نفسي والتأمل في خواطري الجديدة، أتأرجح بين أناة الماضي وبطولته الموهومة. يهدر قصف الذكريات. تقودني حالتي إلى هروب والدي من الملل، يجلس محتميا بسبحته، ينزلق شريط حباتها بصمت قاهر، تحف به ريح السنين المثقلة بالإخفاق.

لاتحضرني ذكراه سوى كاسف البال، ناكد المزاج. يرثي أيامه التي افترستها سجون أيام المقاومة.

أستحضره، وأخال الفشل واليأس فيروسات نتوارثها.

متجاوزا باب لعلو، تنحدر باتجاه ساحة باب الأحد. تحيطك ذكرى أيام دراستك الجامعية، وامتدادها لسنوات بطالتك. رصعت خطواتكم أزقة وشوارع الرباط. رسمتم بها خارطة خارج المألوف. نثرتم عبرها أمانيكم. وتنقلت بحات أصواتكم الغاضبة عبر تيه مدارات السنين.

تنساب أيامك مائعة لبركة حياتك الآسنة. تجرف النفس الجرباء كجرذ موبوء بالطاعون. ترحل عبر ميازيب المدينة، تطفو فوق نثانتها حثالة بشرية على هامش إنسانيتها الشوهاء. تتضوع من ذاتك رائحة قهر مزمن.

تداعب أصابعك تذكرة جاد بها صديق لحضور حفل موسيقي بمسرح محمد الخامس. عرجت على صيدلية منفذا قرارك الأخير. يتلقفك الشارع نفاية. تجهض ما تبقى من أحلامك. وتهيم مضطرب الأفكار.

شارع علال بن عبد الله ينبض بالحركة. تنسل تحت طلاوة المساء. تنبثق بناية المسرح. تدلف ردهتها. تناثر الحضور متطلعا للملصقات أو منخرطا في دردشة. تلفت انتباهك حركة الشفاه اللاغطة. تتقدم فاسحا لنفسك ممرا وسط الأجساد المتراصة. تخال حضورك يزكم أنوفهم. يمتد الرواق أمامك. تنتبه للمضيفة. شعرها الكستنائي ينسدل بخرير صامت على انحدار كتفيها وصدرها الرحب. تسلمها تذكرتك. ترشدك لصف مقعدك بأصبعها الذي اشتهيت قضمه. تتقدم شاردا وتختار لنفسك مسلكا آخر.

تهرب من الأعين الملتهبة تطفلا واستفسارا عن غرابة حضورك. تتخذ مكانا بآخر درج للمقاعد. يمتد فضاء المسرح جميلا، باهيا. تضفي عليه الإنارة جوا شاعريا، مفعما بترقب تبثه النظرات الشاخصة إلى الخشبة وحركات الأجساد.

يتلاشى نور المصابيح بتناغم مضفيا سكينة. بقيت مقاعد شاغرة منبثة بين الصفوف. تستلقي بارتياح على البساط القرمزي الذي يغطي الدرج. تسمح لنفسك بالاسترخاء. تريحك الوضعية للاستماع كما تعودت. تثبت نظرك في السقف. "هل لي قوة اختراقه بنظراتي الهائمة؟". يعلو تصفيق مهذب لاستقبال ولوج الفرقة. تحس تقدم أعضائها المشوب بهاجس سلطة الجمهور. تخفت التصفيقات تدريجيا. يسود فضاء المسرح صوت قائد الفرقة مقدما السمفونية الخامسة لبتهوفن. تخال العازفين متوحدين بآلاتهم.

يترقبون إشارة قائدهم. ثم تنبثق الأنغام منسابة في ثنايا النفس. يتسلل لحن الافتتاح متسارعا، مفجرا مخزون ذاكرتك الموسيقية، ويتنامى كشجرة سرو تداعب ذراها عنان أشواقك، ثم يصخب، فتلتمس مستندا لأشجانك.

خلال برهة تلت نبضَ قرار الكمان، يخترق سن الإبرة الشريان. يسري الزئبق في مجرى الدم. "هل هو خبل الموت يدب في شراييني؟". تتماوج نغمات الكلارنيت. تسبح بأفكارك مساعدا وعيك على الخدر. تضبط فكرك متلبسا بتصورات خرقاء. يتفجر اللحن، وتتصاعد حركة الموسيقى طافحة بالتقابلات الدرامية.

يرشح شعورك بالفراق. قرار لم يزاحمك فيه أحد. تلج الحركة الثانية متهادية، نابعة من آلة التشيلو والفيولا والكلارنيت، بشكل يشد النفس للسكينة والهيام. ثم تضج الأوركسترا مع اندفاع لحن من إيقاع المارش إلى لحن شديد القوة حاد. تزعق الآلات في وجهك.

تتصادى موسيقاها بدواخلك. يتصاعد صخبها بلا هوادة. تحسها تتساقط أنغاما متشظية ذات وقع رهيب. ثم لا تلبث أن تندفع الموسيقى راقصة الأنغام، رشيقة، حية الإيقاع..

لا جدوى من إسبال جفونك. يشتعل التهاب في فمك. تجن معدتك إثر مغص حاد. يتدفق اللعاب لزجا. تنز ذاتك دماءها الفائرة على برزخ وجودك، مترعة بالحياة والموت، بالمقاومة والخنوع، بكل نقيض عشته.

تغيب الرؤية. تتلاشى أصداء الموسيقى كأن الفراغ وقر غصت به أذناك. تدب برودة صقيعية في جسدك، ويرقص تحت رجة رجفات دبكته الأخيرة.

نهـايــة محتملــة

"أوف. يا للسخافة. تعتقد أني مجرد سيل من كلماتك يملأ بياضا أرّقك. لا. إني أنضح حياة. أعيش نسغها..".

توقف قلمي البيك عن الانزلاق فوق الصفحة المنبسطة في تحد. أصخت السمع لدواخلي.

بحثت عن مكمن هذا الصدى. ولم يلبث أن داهمني:

"يبدو أنك منهار وتسقط علي سخافاتك. ابحث لك عن قمامة لنفسيتك..".

لم أنبس بكلمة. عجزت عن تبرير موقفي. أي جريمة كدت أقترف؟!

عاد الصوت أكثر جلاء:

"كيف سولت لك نفسك نفيي وسط هذا العراء، في هذا الليل المدلهم، ليغريك عنقي بتثبيت أنشوطة حوله.. ياها من نهاية بخسة لا تليق بشخص مثلي يؤمن بالحياة لدرجة الوله!".

"كان ذاك اختيارك.. أو قل مسارك المحتوم.."

نطت الكلمات دون قناعة مني، وتنصت مرتابا في أمري.

"أنت نذل حقا. تدفعني لأمر لم أقرر فيه، وتملي علي فتواك"".

يتوقف الصوت.. كأنه يمنحني فرصة الدفاع عن موقفي.. يتمطط الصمت.. وما لبثت أن ترادفت حجج الصوت في قناعة رهيبة:

"كيف تدلق علي أشجانك حتى أوصم بهذا الخزي: الانتحار".

ثم استرسل حاسما الموقف لصالحه:

"أزح عني ترهل مشاعرك وارحل.."

لفظها في وجه تقزم مداركي. وقفز خارج سلطة توقعاتي.

تضيق آفاق رؤياي. أدعك الورقة بين أصابعي. أشعر بها تتمطى تحت ضغط كفي. تختنق الكلمات. وتنبض رأسي باحتمالات جديدة.

نسـفُ رجولـــة

1

تتحسس رغباتُ زوجته مسامَه. تتصاعد تأوهاتها. يدرأ حيرة في عينيه. تجلو أفكارُه ألَـمَ جرح توارى خلف عانته. تاهت شظية على خط النار واستقرت بجذر فخذه. شظية أهدت له بقايا حياة لتذهب بفحولته.

يعتصره ألم إخفاقه. ينضب الاهتياج والاحتلام. يذبل عضوه. يتوارى انتصابه دون رجعة.

لم يفلح دفء جسد زوجته في إنقاذه من ورطته. عيناها تظل شكوكا، ليس في رجولته، وإنما في إخلاصه.

جرَّتِ الحرب معها شك الخيانة. عمَّقت هوة الغياب. رغم الشوق تخبو الحميمية.

- ...

خيم الصمت، أرخى سدوله. كيف لغيوم الجفاء أن تنقشع؟ من أين لارتجاجات اللذة أن تعاود الحضور؟

2

هي: غاض من صدرها الناهد ريق الرغبة. يخبو بريق عينيها. يملأ سوادَهما العتاب. من صمتها يرشح حزن.

هو: بدل أنين اللذة يَصدُر عنه عواء ذئب جريح. جائع. مفجوع.

رجولته: أرجئت لحين. لم يستوعب أنها وُئدت حين نزف. تسربت فحولته بين ذرات الرمل. انسفحت ولا مآل لاستعادتها.

3

....-

تنأى المسافات بين الجسدين. تُحفر خنادق. وتلوح في أفقها حرب لم يخبَرها.

امــرأة النســوق الثنــائي

تنطبع القبلة على الشاشة، تنط ساخرة من خلف عالم لا أدري مستقرا له، فاجرة في إصرارها. تفرقع بصوت ممطوط لازقة لثوان، خالية من أية مشاعر، مليئة بالوهم والشهوة. تتوارى باحمرارها الفاقع، مخلفة لحظة المفاجأة، وحرارة في الجوانح. تنسحب جارة معها طلعتها ولجاجتها.

لم أستجمع شتات أفكاري ومشاعري حتى انثالت كلمات تنضح بالشبق.. تحتك الكلمات من فرط صراحتها بكل أعضائي.. تشتد الإثارة ،وتتقلص الرغبة في المقاومة، فأجدني أسير السرد المباح، أهوي ملفوفا بعجزي لأغوار سحيقة.

لازالت اللحظة منطبعة في الذاكرة، ولم تفلح جل تفرعاتها في محوها أو إخراسها.. بل زادت هوسي، وتحولت لأفق سرابي أسعى لملاحقته.

أنفض الذكرى من رأسي.. أتململ لأجدني عالقا بنظراتي، في شفتي إحدى مسافرات المقصورة. نكست رأسي لألوك لحظاتي بين بلاهة الكلمات المتقاطعة لجريدة مبسوطة أمامي. يقلني القطار

الملكوكي، وسط وجوه تنز عياءها، متهاديا في بهيم ليل تنيره مصابيح بدت نجوما كلت فهوت.

يلفظني الملكوكي مع كومة بشرية.. ترتحل رجلاي من المحطة باتجاه أحد أحياء المدينة.. يستقبلني وجهه الليلي طامسا بشاعته.. بخطى مرهقة أدلف بيتي محييا إحدى جاراتي العجائز.

ألج غرفة نومي. استعظت عن إنارة المصباح بالضغط على زر تشغيل جهاز الحاسوب. رفقة نغمات صوت بدء التشغيل تخففت من ملابسي. عدت للجهاز. خلال دقائق وجدتني أتفحص عناوين فتيات لأكثر من موقع. بعثت تحية مسائية مقتضبة.. **slt..bs**.. تركت الغرفة.. أعددت سندويتشا على النور الخفيف للثلاجة. ثم حملت قهوتي الفاترة في أوبة لفضاء الدردشة.

وسط ظلمة غرفتي الموشاة بنور الشاشة، كانت نبضات قلبي الفاترة كقهوتي تترقب الأجوبة. ألوك مرارة أسري. على عتبة سنواتي الثلاثين تتشظى اللحظات والساعات، ويفتك بي التمني.

مافتئ بعض من وعيي يؤرقني.. يتملص من أزمته ، ويطل علي بأكذوبة أخلاقياتي.

أمام زحف الأسماء أنتقي شخصياتي، أنضد عالمي منها، مبعدا ما يزعجني.. يزاحمك شواذ تتقافز مؤخراتهم من الشهوة على كراسيهم.. تخطر فتيات من كل الأعمار والجهات، بعضهن في غنج عاهر، والبعض منهن إعلانا لذواتهن، وأخريات استلطافا للدردشة.. لا أريج عطر، لا حضورا لدفء الجسد، لا رضابا، لا صوتا مكتوما لانسدال خصلات شعر.. فقط وجود لذات تلوك زمنها.

تبتر المطاردة والمساومة نصف ليلي. تحضرني الوجوه المكدودة لبعض العاملين معي. حين ألج مكاتب المقاطعة الحضرية، أنزوي في ركني رفقة جرذان بين ركام الملفات التي تزكم أنفي بقدمها، وتتجسد حالات الوفيات في نثانتها. ألمح بعض الوجوه المدموغة بالسهر، والأجفان المرتعشة تحت وطأة السهاد. نتبادل تهويماتنا. نزحف للارتواء من حمأة العلاقات. نمتطي الحلم الافتراضي بشقراء مرتقبة.

كان الانتشاء غضا وطريا. احتاج الأمر لبعض الادخار، وضبط النفس عن استهلاك جانب من احتياجاتها، لألتحق بركب شلة أصدقاء العمل. أتى اليوم الموعود لأفتح بيتي لأنيس جديد.. امتد الشوق لأربط نفسي بعوالم جديدة حين يضيق الشارع بأمثالي. تفتقت متعة لا توصف لتغذية أشواقي للمعرفة.. فحُمِلت من حيث لا أدري إلى البحث عن ليالي الأنس والدردشة.

تتوزعني الأسماء، والجهات، والأعمار، والأحاسيس بكل ضروبها. تمتد مملكتي لأحاصر زمني.. أسابق الثواني بين رسائل الهاتف الخلوي والحوارات عبر مواقع الدردشة.. تترى الرسائل كلمات، صوتا، صورة.. متتبعا ما تنقله الأعين المتلصصة على الأجساد ونبض حياة الغرف منتصف الليل.

وسط هذا الزحف الهائل من الأسماء، اهتديت لتبويب الاتصالات والمراسلات، بين النصائح، والطرائف، والكلمات النابية المختزنة في الذاكرة منها والمبتكرة في حينها.. وللعجب بابها أغنى الأبواب، والسليقة فيها دون حدود. كما انتبهت لإمكانية التماهي كما تحب نفسك وتختار: تستطيع تمديد سنك، تختلق شخصيتك، وتحدد جنسك كما اتفق أو كما تقرر أنت، وتحلق في بلدان العالم كما تشاء.. وملا لا لحريك عبر الشبكة العنكبوتية، مادامت زوارق الموت

تتطلب جرأة أكبر.. لم يصح فكري لاستيعاب موقع خطواتي في هذه العوالم حتى فقدت الاتجاه..

وسط هذا الركام من المشاعر يبدو من المستحيل استعادة نفسك.

في رحاب هذه العلاقات تتعطل إنسانيتك، وحدها الكلمات تتدفق، كلمات تبصر، تتنصت، تتطفل، تتحدى.. بل تتجرأ أحيانا لتنحر نفسيتك بسادية غريبة. تذبل العين من كثرة التحديق وملاحقة أشلاء المشاعر المتناثرة، تجيش النفس بحالة تيه. تفقد كل متعة. تتلاشى كل لحظة هاربة أردت اقتناصها، فتغيم الأسماء والكلمات. يحملك زحف العقارب لفراشك رغما عنك. تنبعج الأماني، ويبقى الأمل معلقا على مشجب من وهم. تستوطن مكانا في فضاء هلامي. تمد خيالك لتنسج حلما على مقاس ليلتك، وقد يواتيك فتداهم به توقعات غدك.

ثلاثة نوارس تمتشق نعيقها

مع انحسار المد، بدا البحر ساجيا وقد ثاب لهدوئه. تلفعت السماء بندف سحب عابرة فبدت موشاة لاستقبال يوم رائق.

على الشط ارتسمت بقايا صخب بحر مزبد. بالجانب الأيسر منه تكدست جلاميد صخر توحي بالسكينة. فوق بعضها حط سرب نوارس. في جانب انزوت ثلاثة منها، متكاسلة تحت دفء أشعة الشمس، تناغي بعضها.

المرقط الرأس يفرد جناحيه بزهو.. يخفق بهما بحيوية.. يرتفع عن سطح الصخرة مختبرا إمكانية الانفلات من توقعات اليومي. الأسحم اتكأ على جناحه الأيسر. اتخذ وضعية توحي بالتسليم والخنوع. ثالثها أبيض يشوب جناحيه سواد خفيف. يقف في وضعية تأهب. عنقه متوثب وعيناه تتطلعان للأفق.

غير بعيد عنهم امتد البحر متهاديا، تصاحب انكسار موجه بعض النوارس المنتشية وطيور الغاق.

ينطق المرقط الرأس مملوءا بالثقة والقرار:

- فكرت مليا، ولن أخوض غمار التمرد على هذه المدينة. ولن أتنكر لجميلها.

رد المتوثب عنقه:

- لم أعد أطيق رائحة الموت في هذه "المقبرة".. ضجت أذناي بصوت اليتامى والأرامل.. وحزن الثكالى.. ضاق صدري من عدم تورع هذا "المزبد" عن ابتلاع رجالها.

احتد الأسحم ضده:

- أخرس نعيبك.. وأطفئ بريق عينيك المنذر بالشؤم..

لم يعر المتوثب عنقه اهتماما لنبرة القدح:

- لن أصدح بغير الحق.. ولن تني عيني عن النبش لتعرية ما لا تراه أعينكم.. علق المرقط الرأس، مموليا تقريره:
- حومت دوما في فضاء هذه الغراء.. سعدت بالأطفال يمرحون عراة، والفرح يطفر من أجسادهم التي تضاهي ريشي خفة.. وأمتعت عينيّ نساؤها المتسربلات بالبياض كزنابق الحقل.. والطرقات قد ارتاحت من غطرسة رجالها..

طعنه المتوثب عنقه بمنقاره مهتاجا.. تشابكا بصفق الأجنحة.. ثم تباعدا ينظر كل منهما للآخر توجسا:

- ألا ترى أنك تحمل لعنة هذه المدينة في كلامك؟ وتبشر بفنائها في نبراتك؟

ابتعد عنه وهو يردد في أسى:

- لم يكن أطفالها سوى ذوات نخرها الجوع، ونسوتها أرامل يخطرن في موكب جنائزي..
- ...

يعلو زئير شاحنة قاطعا مناوشات النوارس. تتصلب أجنحتها استعدادا للتحليق. تخفق بهوادة لمسافة قصيرة. تنزلق الحمولة من الشاحنة بصخب. تثير شهية النوارس كمية من فضلات السردين. تتسابق متعثرة ببعضها. تخوض مناقيرها في القمامة، وتغص حناجرها بالصمت.

إلى ذكرى الفقيه محمد

حـــــــاء

حرن النفس في صدرك، ولم يعد يسعفك لالتقاط دفقات الرياح الجافة. تستحلب ريقك.

تحس حنجرتك ملآى بتعاريج موجعة. تفقد سحنتك آخر خصائص آدميتها. أي زمن يشهد انهيارك. لم تعد تملك حتى القدرة على تمني النفس بتراقص السراب. تعتري شفتيك أخاديد دامية. عشا بصرك من فرط شمس فقدت حركتها، ويستقر دبيب لظاها وخزا في مسام جلدك.

تنبجس رغبتك في الحياة متمردة على براثن الفناء.. تردم بإصرارها هوة سحيقة لاستعادة موطئ قدم لها.. على مشارف ست ثوان أو أكثر بقليل تنتفض لتوظيب كل الأفكار، الهواجس، الأزمنة، الموجودات.. وقبل اكتمال ثوانيها السبع تسابق رغبتها في أن تلوذ للراحة.

راء

راعتك حالة لَعْشير فْالمحنة, صار خردة آدمية. ينزوي في ركن قصي من الخيمة. يحمل وقاره ويعتصر مثانته طلبا لجرعة أخيرة تسند تدهوره. تتسرب لحظات التمني. يندثر أمل عودة الكابورال. يحاصركما جفاف الجسد. يعثر الرفيق على آخر مصدر للارتواء في هذا المدى الممتد من الظمأ. يتحسر لكون الفكرة داهمته بعد ابتلاع الرمال العطشى مدخر مثانته.

بـــــاء

بالرغم من كونك لم تفقه أبجدية العيش في الصحراء، بتّ تقاوم عصيانها. أرغمتك على المواجهة. لم تمهلك شحذ أفكارك ومشاعرك عن الأبعاد المستجدة لوطنيتك. انشغلت عنها بالرغبة في الحياة. شيء ما بداخلك داوم على الصراع. نظمت من الوجع مرثياتك لفقدانك دفق عيون أم الربيع، ورحابة الاخضرار الدائم للأرز. لم يقدك حدسك يوما لهذه النهاية المفجعة. تعطل كل إحساس لديك. تطن في رأسك لعلعة الطلقات، ويعج سمعك بهدير محركات الجيب وأزيز الشاحنات الرباعية الدفع. يطغى اللون الأحمر

على بصرك، تنحصر رؤيتك في استحضار أشلاء الأصدقاء، وتغبطهم على الموت الذي داهمهم دون تسويف أو مماطلة.

يتداخل أنين لعشير (ربما من حريق النبولة) مع وشوشة نائية. بعد أزمنة حبلى بالترقب تخترق حجاب رؤيتك الأحمر أشباح آدمية. تصر لحظة وجودك المعكرة المزاج على استعادة زحفها في رحلة الخلق. تفض بكارة البرزخ. تلج عوالم بكر، عوالم تشرف على العدم، تحبل بالتمرد على جفاف خلاياك. تحس قطرات بعنف تدفق شلال أزود تدك شفتيك. تنتشل وعيك الراكض عبر السراب، وتدرك أنها إحدى مقالب الصحراء الغاصة بلعنة الحرب.

مريمتـــــو

النجوم يراعات استوطنت زرقة السماء المعتمة. ورحيلي بين الأصقاع تيه لا متناه عبر مجرات الآمال. أضواء المساء تنسج حركة شارع مكة* الذؤوب. تفيض من بينها بسمة مريمتو قبل تواريها. تسكنني في غيابها رَفّات عينيها وإيماءاتها. تتناسل بيننا سنين الفراق بامتداد الأبدية، وتجثم على نبض عشقنا بثقل عالم جُن.

أركن نفسي في كرسي بواجهة مقهى Atlantique. فندق المسيرة يحجز امتداد نظري. يكسر انبساطا ألفته في البراري. تعتلي مدخله منحوتة نحاسية تمثل حماس مشاركين في المسيرة. تشدني صرخة الحماسة في التعبير.. تجسيد الحركة.. دفق الرياح.. الخطو المتسارع.. لكن ملامحها يذهب بما خفي من تضارب مشاعر.. معاناة.. ألم.. توجس.. حنين أو شوق.. رهبة السؤال.. الخوف من المجهول..

ألاحقُ مصابيح السيارات الضاجة. تتلقف عيني نساء توشحن بالملحفة. تخفق تلابيبها تحت مداعبات نسيم المساء. يزيد من تموجها

---

* شارع بمدينة العيون الجنوبية

حركة الأعطاف المتهادية. كل زيّ فيض من بلاغة الجسد. يعلن حضوره دفقا خاصا للأنوثة. تبحر الرغبة عبر انسيابية الخطوات. تموج بينها مريمتو ناثرة فرحها. مطرزة الأجواء بسحر نظراتها. تطفر الأنوثة من جسدها الغض.

فارت لجة الصيف. كانت الحد الفاصل. لم تقدر شيبة والدي مجاراة عصيان الطبيعة. نفق بعض المعز. تاهت إبل من ندرة الماء. أرهقه تنقل بين طيش الرصاص، وبحث عن لجوء أو غربة أقسى من الموت. أَبن الدم في عروقه من النكد، والحيرة، فأَبّ للرحيل. عودة غير معلومة عواقبها.

أذكر يومها يديكِ المسْودّتين من سَخَم أتافي القِدر. يتلاطم غضب الرجال بنحيب النساء. تطل نظرتك الحيرى، فأحضن إطلالتك وقد غاض فرحك.

في غسق لفَّ الفراقَ ملحتُ رفةً تعتلي رموشك. تعانقت نظراتنا أملا يسند عشقا وليدا. همساتنا يدب صداها في رحاب أمكنة أَلفت ما بيننا.

صوت المعلومة منت المداح المنسكب من داخل المقهى يرافق الحضور الآسر لنساء يخطرن:

مغرور زميلك ياولد ماهو مقدرني

متخبي عني متعمد قاصد يعطبني

تُشيع الكلمات فيض وله الأنثى.. ريم مكلومة، أسيرة بوح الذات..

أذكر عذوبة صوتك الصادح بالغناء. توقعين نبض اللحن بكفيك، يعانقه شغفي بائتلاف النبرة والوتر الآسر. تلاحق أناملي انديا ح أدائك. اليوم ألحقونا بمندوبية وزارة الثقافة. نسعى لنصون الغناء الحساني. غناء لم يوجد ليصان، بل ليحيى. لم يشهدوا تواشج الكلمة باللحن، بحركة الرمال وسفر النجوم، بشتلات الآثال وتحويم

الطير.. لم يشهدوا توحد الطرب بالمواويل، بالفخر، بالعشق.. كيف نصونه إن فقد نُسغ الحياة فيه..

أسحبُ آخر نفس من سيجارتي. أتنقل بين تراقص نور اليراعات. يزيد بريقها من حلكة الليل. يضاعف عمق الامتداد. أعلق بينها. أرقبُ انعكاس ضوء البدر على رمال الصحراء. أسكن ذراتها. أسكب عشقي والتحامي بها. على مدار سنوات،كلما نسجت علاقة بالمكان فُصمت.

في تيه الاقتتال.. في رحاب الغياب.. عاندتُ رجفة القلب من أجلك. كتمت أنفاس الشوق. داريتها خلف التنطع والحماسة. انتظرت يوما يبشر بمعجزة. صار زمني موطنا للآني، وُئدت

على جنباته التوقعات. وفيك اختزلت كل الأمكنة. يرافق شدو حضورك كلمات الشاعر

ريـمِ جنة ماهي فيها هي نارك ياعظيمي
والنار إلى عادت فيها هي جنـةُ النعيم*

اليوم، حين أقابلُ كثبان الرمل، يخفق القلب. أتوحد بدبيب الرياح. أرف لأعانق هواجسك :مريمتو. أخصب الحلم بالتلاقي. أبث الأمل بذرة حياة. تهون كل مشاق الرحيل إليك. تعلمين أن صعوبة الترحال غياب القصد وليس الوجهة. لعلني أسابق زمني إليك. أسرقُ اللحظة من تلاحق أنفاس اليومي، و أترك لوجيب قلبينا أن يرسم خصائص عالم يولد.

---

* شعر حساني

إطلالة ثانية

قِصَرٌ بعمق أشجان الصَّبا

" الإنسان لا يولد ليحزن ويموت"

الشريف البدري

رتـــابـــة

ينضو عنه زمن الترقب. يتملص من لزاجة رحم. يصرخ في وجه ثقل الهواء على رئتيه.

يضاف لازدحام المسكونة بطراوة الأجساد،

بحركتها..

دبق عرقها..

سمة التجاعيد..

ينضو عنه زمنا ولىَ، وينسل للقيا الثرى.

عطـــــــــــر

-1

صارَ نومه مصحوبا بغمغمة.. تضاعفت حركاته في السرير.. بترت هدوء الليل تأوهات مشبوهة.. ضَبطت ملامحه في نوبة ابتهاج، تتقلص لتشكيل ابتسامة. اقترنت حالته بتفاقم التصاق عطر بمسامه. عطر فغم خياشيمها حد الاختناق. عطر له حضور أنثوي. أحست

انتشاره يتجسد فيحول دونهما. عطر خبرت نوعه في محلات EVE ROCHE .

-2

في غفلة منه، زاحم عطر رجولته. أيقظ أحاسيس في طريقها للتلاشي. انتبه لوجودها. شعر بها مسجاة إلى جانبه. شلت ذاكرة شمه قدرته على التفكير، وفتك به عطر لم يخف عنه. عطر فاسق كعري صدر الرجل على قنينة Boss.

....-

على سرير الجفاء تمدد السيد BOSS والسيدة EVE يزجان بالجسدين إلى حافة الفراش.

فوتوغرافيـــــا

يبطش به هوس التصوير. تتمرغ عيناه في شخوص مجاله. حفيف تكتكة آلة التصوير يطرب أذنيه. تنقض العدسة دون هوادة على الأقفية.. تك.. تك.. يسعى لدمغ الهويات.. تك.. السحنات.. تك.. التشنجات.. تك.. يتفادى أشعة الشمس التي تخز خده الأيمن.. تك..

تك ..

تغص عدسته بطوابير من خلفيات الرؤوس وما يزيد.. تك.. تك.. رؤوس.. تك.. أقفية..

تك.. رؤوس..

تنأى زاوية الالتقاط.. تكف التكتكة.. تموت بين أصابعه المتقلصة.. تندلق عيناه من محجريهما إثر المفاجأة.. ينتبه، ويلفى نفسه وحيدا في وطن يباب.

محـاولـة عيــش

عمري أمل ووردة أينعت.
أجهز عشق على وردتي، واغتصب حلم أملي.
فتواريت من حيث أتيت.

جـاذبيــة

تُشرع أبوابَ الحلم. تلاحق حقك في الاحتمالات. تصوغ الرغبةَ في إعادة تأهيل وضعيتك.

تعلق رأسك في متوالية أفكار.

تبترها الرغبة في الفكاك.. تنفصل عن رقبتها.. تتدحرج..

فتدرك أن للاحتمالات أيضا جاذبيتها.

متــواليــة

على عتبات قريحته، اختلى بنفسه متفكرا. تجول وتجوس كلماته لاقتناص المعاني المنفلتة.

شاحذا إلهامه..صاغ مرثية تأبينا لموت الإنسان. قصيدةً ثكلت أبياتها إلا مطلعها.

ارتقى إنسان مطلعها وأشرف على أفكار بطراوة الفجر.

ورطـــة

خبر من مخفر:

"كشفت التحرياتُ عن تحديد جنس مرتكب الجرائم.

أنثى في العشرينات وقّعت جريمتها الأخيرة بلقب المرأة العنكبوت".

من وحي الوقائع

في ملهى ليلي، وسط صخب الموسيقى، رمقته يجوس تخوم جاذبيتها. على خيوط ارتحالها تنز أنوثتها. لزق تفكيره بين ثنايا جسد مترع بالشهوة. ينقاد على تفرعات شبكتها. تُبرق شبقيتها يتقدم برقصة إيروتيكية..ضرب من رجّة مفاصله وتخلّع أطرافه تحت سطوة الغواية.

على مشارف المدينة. يعتليها غير متماسك الفرائص. يلقحها انتصاب فحولته. تتراخى أوصاله. وبلذة غير مسبوقة تنقض عليه من هوس. تقضم رغبته، وذكورته، وذكرياته..

شائعة: قيل أن "الأنثى" ذكر أجرى عملية لتغيير جنسه، فاختلت وظائفه النفسية.

عهـــــر

... توارت شمس أيام حربائيته. طلبت منه مصارحتها - أو مطارحتها الكلام - بحقيقة عهره.

- الحقيقة قد تؤويك لأحلام وقد تؤذيك - قال - إن لها وجهين، لذلك فهي عملة سهلة، وبخسة التداول.

علقت كلماته بتلابيب دخان سيجارته.

خزرته.

إربد محياها حنقا. قصفت آخر صبرها ومدارات إحباطها. رمته ب"العين الحمرة" قائلة:

- ما أسعدنا بها عملة.. فنحن أغنياء.. بل أغبياء بتداولها إذن.

بدت فخورة أنها أفحمته بردها. نثرت بسمتها الشامتة وهي ترج رأسها كأنما تنفض عنها ذكراه.

غابت في أنفة. بينما توارى بين طيات ليل بهيم بحثا عن فسحة عهر جديد.

جـــــــدل

مدفوعا بالنسغ الدافق في عروقك، وإخلاصا لرعشة الفرح بفك شفرة أحجية الحياة،

اخترت الترحال لاكتناه السر الكامن وراء أيامك.

ويوم انتدبك القدر حليفا، أدركت أن فيك تتقاطع الأضداد

مبعث شؤم ومنبع أمل..

عثرة إبليس ويد الإله..

فسخت تحالفك، وخرجت من دائرة التقاطع، لتعيش قدرك أو قرارك.

قطران بلادي..

يلبد خفر السواحل جلمود صخر.

يقتل الانتظارَ ارتطام موج صاخب.

تزحف الأجساد سواداً توشَّحه الليل. وتتسرب ملوحةً تشرَّبها أليم.

ومع انصرام الترقب، يزداد خفر السواحل إمعانا في صخريته.

أمـــــــل

كبحّار مهووس بالمجهول، تغادر أرخبيل قناعاتك.

تنشر أشرعة كبواتك وترحل.

تبحر في ظلمات يأسك.

ينال منك بصيص حياة على مرمى من حتفك. فتدرك أن الآمال كروية الشكل.

خســـــوف

يعلق بأجفاني تثاؤب. يطل صبح على أهداب صغيري. يتعثر في بقايا غبَش. يداهمني سنوٌّ عينيه العسليتين.

تتسلل أنامله المخاتلة/ النزقة/ المشاكسة لصدري. يجرف مع آهاتي شمسا كامنة. يدفئها بين كفَّيْه. يداهم نورها بقايا كمد من نفسي. على نسغ نهار آت يشرق ابني صُبحا جديدا من شغب.

مــونـولـوج

اقتنص حياة أول شخص. في دوامة ارتجافه تساءل:

من المسؤول عن هذا الموت:

الوطن؟

القضية؟

أم هو؟

لحظة غارت رصاصة بين أضلعه، لم تتلاقح الأسئلة. أدرك من دفق نزيفه أنه الضحية.

نهـــــايــة

تتعثر أفكاره. تحاصره لحظة سيزيفية وهو يهم بتوظيب النهاية.

اختلجت الكلمات، نأت عن حشرجة الأحرف بحثا عن بداية جديدة.

لحظة خطّه العنوان، انتهت أنفاس نصه للتلاشي.

وقبل مراسيم نعيه، سطر رغبته الأخيرة:

البحث عن بداية

الفهـــــرس

على سبيل التقديم..... 5
إطلالة أولى..... 15
إرهاصات زمن..... 17
تناغم..... 21
رقصة الجسد..... 23
نهاية محتملة..... 27
نسف رجولة..... 29
امرأة النسق الثنائي..... 31
ثلاثة نوارس تمتشق نعيقها..... 35
حاء..... 37
مريمتو..... 40
إطلالة ثانية..... 43
رتابة..... 47
عطر..... 48
فوتوغرافيا..... 49
محاولة عيش..... 50

جاذبية..... 51
متوالية..... 52
ورطة..... 53
من وحي الوقائع..... 54
عهر..... 55
حبل..... 56
قطران بلادي..... 57
أمل..... 58
خسوف..... 59
مونولوج..... 60
نهاية..... 61

محمد صلحي

النجوم يراعات استوطنت زرقة السماء المعتمة. ورحيلي بين الأصقاع تيه امتناه عبر مجرات الآمال. أضواء المساء تنسج حركة شارع مكة الذؤوب. تفيض من بينها بسمة مريمتو قبل تواريها. تسكنني في غيابها رفّات عينيها وإيماءاتها. تتناسل بيننا سنين الفراق بامتداد الأبدية، وتجثم على نبض عشقنا بثقل عالم جُنّ..

في محكيات محمد صلحي السردية، تتعدد التنقلات وأشكال الرحيل بحثا عن الأمل المتمنع. وتماما مثل بحّار مأخوذ بالمجهول، يغادر السارد أرخبيل قناعاته وأفكاره المبدئية، يرفع أشرعة الصبوات والكبوات ويرحل مبحرا في ظلمات اليأس داخل بحار لا شموس لها بحثا عن الحياة والأمل. وتنتهي الرحلة نهاية مؤسية، إذ يكتشف أن الآمال إهليلجية الشكل، وأن الحياة منقوعة في الحزن والشجن، وما يتبدى منها من بصيص يكون قاب قوسين أو أدنى من الحتف والموت، هذا برغم أن الإنسان لا يولد ليحزن ويشقى ويموت كما عبّر الشريف البدري.

د. عبد الجليل بن محمد الأزدي

الثمن: 20 درهما

الطبعة

Imprimerie
RABAT NET MAROC
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com